الفصل الثالث عشر

بنو أمية ١٢٧ — ١٣٢ هـ (٧٤٤ — ٧٥٠ م)

(تابع ما قبله)

مروان الثانى — أخلاقه — التمرد — الثورة فى خراسان — أبو مسلم الخراسانى — الثورة فى فارس — انهزام نصر حاكم خراسان ومقتله — موت إبراهيم الإمام العباسى — انهزام بنى أمية فى نهاوند — هزيمة حاكم العراق — مبايعة السفاح بالخلافة — موقعة الزاب — انهزام مروان — فراره — سقوط دمشق — انتقام العباسيين — موت مروان — آخر حكام بنى أمية — أسباب سقوط الدولة الأموية

مروان الثانى

هو حفيد مؤسس الأسرة الحكمية ، وقد سبق أن مارس الحكم فى بلاد أرمينيا فأظهر فى إدارة شؤونها نشاطاً وحزماً جديرين بالإعجاب ؛ والمأثور عنه أنه اشتبك فى مدة حكمه مع بعض قبائل الشمال — التى كانت لا تفتأ تغير على الحدود الشمالية — فى عدة معارك كان يهزمهم فيها دائماً ويفرق شملهم المرة تلو الأخرى . وقد أكسبته حياته الشاقة التى كان يزاولها فى ميادين القتال قوة الاحتمال على شظف العيش حتى لقب بالحمار[1] ، لا على سبيل السخرية أو الاستهزاء ، إنما على سبيل المجاز ، إشارة لقوة عضلاته و إعجاباً بصلابته ؛ كذلك كان على نقيض أسلافه متقشفاً ورعاً يعيش مع جنوده ، فلا يؤثر نفسه بشىء لا يستطيع منحه لهم ، سواء أكان ذلك فى وقت السلم أم فى ميادين القتال . وكان يتناول أرزاقه كأبسط جندى متحملا شظف العيش وقسوة الحياة فى معسكره . ولما أفضى إليه الملك وانتقل إلى قصر الخلافة لم يأخذ قط بنصيب قليل ولا كبير من متع الحياة الدنيا المعروفة عن الخلفاء الأمويين . بل قصر همه على قراءة

(١) يلاحظ أن الحمار يمتاز بالصبر والاحتمال على الشدائد .

أخلاقه

كتب التاريخ القديم الذى غالباً ما كان يتذاكره مع كاتبه الخاص أو أصحابه المقربين . وكان قد كبر سنه عند ما اعتلى عرش الخلافة[١] ، ولكن خفة حركته فى القتال وسرعة انقضاضه على الأعداء الذين تألبوا عليه من كل حدب وصوب برهنتا على أن الشيخوخة لم تقل من عزيمته أو تنال من نشاطه ، بيد أن التفوق العسكرى ليس وحده كل ما يجب أن يتصف به من يطمع فى الملك — ولا سيما فى مثل تلك الظروف — بل ثمة صفة أخرى يجب أن يمتاز بها الحاكم ، وعلى الأخص من يرغب فى إنقاذ دولة كالدولة الأموية من الانحلال الذى منيت به وقتئذ ، وهى الترفع عن العصبية القبلية ، ولكنها صفة كان يفتقر إليها بالضرورة مروان ومعظم أفراد بيته .

ولو وهب « مروان » بعد النظر واتساع أفق التفكير — وهما من أهم ميزات السياسى المحنك — ولو وهب كذلك حب المسالمة التى بها وحدها كان يستطيع المحافظة على التوازن بين العناصر المتنازعة لتغير مجرى تاريخ آسيا ، وأصبح له شأن آخر غير هذا الشأن ، ولكن صرامة خلقه وشدة شكيمته مضافتين إلى أبرز صفات الأمويين — وهما العناد والقسوة — زادت فى نقائصه وعيوبه ؛ فبدلا من أن يحاول إطفاء نار الضغائن ونزع السخائم التى كانت تمزق شمل الشعب العربى ، رمى بنفسه فى عباب المنازعات القبلية بذلك الحماس الأعمى ، والسخط المتناهى ، اللذين عامل بهما اليمانيين ، فأثار دفين الأحقاد فى قلوب الطرفين ؛ كما زاد هجاء الشعراء وتفاخرهم فى إضرام نار هذا التنافس القديم ، المصحوب بأخطاء العصر وحزازاته . وهكذا نجد الكميت[٢] أحد شعراء مضر ينظم قصيدة طويلة تسمى « بالهاشميات » يتغنى فيها ببسالة قبيلته ومناقب قومه مؤثراً بنى هاشم ، ومشيراً إلى المحن والأهوال التى نزلت بهم ، فيعارضه شاعر

(١) يقال إنه كان قد تجاوز الستين .

(٢) هو الكميت بن زيد الأسدى من أسد مضر بن نزار .

يمنى يسمى « دعبل »[١] بقصيدة يعرض فيها بالمضريين ، ويفاخر بآل حمير وملوكهم ؛ فأخذت تلك الأشعار وغيرها تتناقل من المدن إلى الصحراء ، وألهبت أبياتها المليئة بالهجو والتفاخر قلوب البدو والحضر[٢] على حد سواء ؛ فتحزبت الناس ، وتأصلت الضغائن بين الحميريين والمضريين .

الثورة

وفى تلك الأثناء عمت بلاد المشرق الفوضى والارتباك ، فاعتزل الأتقياء ورجال العلم ميدان السياسة ، تاركين الشؤون العامة للسفلة الأنانيين والوصوليين ذوى المنافع الشخصية والمآرب الذاتية . وتوقع الناس الخراب الذى بدأت تظهر دلائله فى ذلك الحين . فلم يكد مروان يجلس على عرش الخلافة مدة طويلة من الزمن حتى انتقض عليه أهل حمص وفلسطين ، وخرج عليه الخوارج من مكامنهم فى الصحراء معلنين حرباً شعواء على الدولة الأموية ، حاضين المسلمين على الدعوة إلى الحق . ومهما نقل فى عقائد هؤلاء الغلاة المتعصبين ، فلا يجوز أن نغفل عن أنهم كانوا مخلصين جد الإخلاص فى عقيدتهم ، صادقين فى دعوتهم وشعورهم ، دون أن يحسبوا حساباً للمصاعب التى تجابههم والأهوال التى تكتنفهم . وبرغم قلة عددهم نسبيا فقد استطاعوا اكتساح اليمن والحجاز والعراق والاستيلاء عليها ردحاً من الزمن . وقد أظهر « مروان » فى حروبه مع هؤلاء الثوار مقدرة عجيبة فى القيادة ، وهمة فى الحركات العسكرية ، فهزم أهالى

---

(١) هو دعبل بن على الخزاعى وقصيدته هى التى مطلعها :

أفيقى من ملامك يا ظعينا كفانى اللوم من الأربعينا

(المعرب)

(٢) نذكر فيما يلى تعليق المسعودى بهذا الصدد :

« وثارت العصبية فى البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدى وتعصبه لقومه من نزار على اليمن ، وانحراف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بنى أمية إلى بنى هاشم ، ثم ما تلا ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن وقتله أهلها تعصباً لقومه من ربيعة وغيرها من نزار ، وقطعه الحلف الذى كان بين اليمن وربيعة فى القدم ، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة كيدا لمعن وتعصباً من عقبة ابن سالم لقومه من قحطان ، وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان » .

حمص وفلسطين بالتتابع ، ثم سار إلى العراق ، و بعد حروب شديدة مع الخوارج أجلاهم إلى ما وراء نهر دجلة . أما فى الحجاز فكان الخوارج قد استولوا بقيادة أبى حمزة على المدينة بعد مناوشة طفيفة مع أهلها ، ولكنهم مع ذلك عاملوهم معاملة حسنة لم يعاملوهم بمثلها الأمويون قط . وكانت اليمن وقتئذ فى قبضة « داعى الحق » أحد عمال مروان ، وكان جندياً طائشا زنديقاً على شاكلة فرسان أوروبا فى القرون الوسطى ، ومما يؤثر عنه أنه صرح ذات مرة على الملأ بأنه لا يتقيد أبداً بأحكام القرآن الكريم ، فسار إلى هؤلاء الخوارج المغالين واشتبك معهم فى عدة معارك هزمهم فيها وأجلاهم عن الحجاز واليمن ، فالتجأوا إلى حضرموت ، كما التجأ إخوانهم الذين طردوا من العراق إلى فارس حيث زادوا فى عوامل الاضطرابات والمنازعات التى كانت سائدة وقتئذ فى تلك البلاد .

و بعد أن ساد الأمن وانتشر السلم فى هاتيك الربوع عين مروان الثانى « يزيد بن عمر بن هبيرة » أحد أتباعه المخلصين والياً على المشرق ، ثم انسحب إلى قصره المحبوب فى « حران » تاركا شؤون الدولة لابنيه « عبد الملك » و « عبد الله » ، وظل هو مقيما فى قصره حتى استنجدا به لقيادة الجيش الأموى فى المعارك التى انتهت بقتله وسقوط أسرته .

وفيما كان مروان يحمل حملاته الصادقة على الثائرين فى الشام ، ويكافح الغلاة المتعصبين فى العراق وجزيرة العرب ، كانت الضغائن بين مضر وحمير يشتد سعيرها فتعمل على تقويض دعائم الإمبراطورية الأموية فى آسيا . ولما كان « نصر » حاكم خراسان من بنى مضر ، فقد خرج عليه الحميريون وثاروا ضده . كما انتهز دعاة العباسيين ذلك التنافس المتأصل بين القبيلتين المتحكمتين فى رقاب العالم الإسلامى ، وراحوا يضربون على وتر العصبية القبلية ، ويشعلون نارها لكى ينفجر السخط الذى كان أشبه بمنجم البارود فيدك عرش بنى أمية

دكا . وقد كان « أبو مسلم الخراسانى » — زعيم الثورة — أليق رجل للنهوض بهذا العمل الذى أناطه به الإمام العباسى .

الثورة فى خراسان

كان أبو مسلم يبدو مجرداً من الإحساس ، فلا يبدو على ملامح وجهه ما يكشف عن دفين سره ، كذلك كان يخفى فى صدره قلباً قاسياً لا يرحم ولا يلين ، حتى لم تكن أشد الحوادث خطراً وأعظمها هولا لتعرف قط سبيلا إلى فؤاده ، ولا تؤثر على ملامحه الهادئة ، فكان يتلقى بشائر النصر الباهر من غير أن يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الغبطة والسرور ، كذلك كانت أعظم الكوارث هولا وأشدها فشلا لا تحرك له ساكنا . وعلى الجملة كانت أعصابه كأنها قدت من الفولاذ ، فلم يفقد قط سيطرته على نفسه فى أحرج المواقف ؛ كذلك كانت دمائة خلقه ورقة شمائله تجذب إليه قلوب أعدائه وخلصائه على حد سواء ، بينما كانت كفاءته العسكرية ونبوغه فى تنظيم الجيوش وإدارة الشؤون العامة تسترعى الإعجاب والفخر . والحق أن المهارة « المكيافيلية » التى استعملها فى الضرب على وتر العصبية القبلية بين مضر وحمير ، والعداء الذى كان يملأ قلوب الفريقين هما اللذان مكناه من تنفيذ خطته .

قد أتينا فيما سبق على وصف الدعاية العباسية ، وأبنّا كيفية انتشار نفوذها شيئاً فشيئا . ونقول الآن إن تحريم الأئمة استعمال القوة كان مبدأ يتمسك به كثير من أشد أتباعهم تصوفا ، غير أن هذا الحرمان أوجد رغبة فى التطلع إلى الزعامة فى مجال آخر للقضاء على الدولة الأموية ، ولكن هذه الأسباب وحدها ليست كافية لتبين لنا مبعث الثورة التى رفعت العباسيين إلى عرش الخلافة بهذا النجاح المنقطع النظير ، بل لعلها ليست كافية أيضاً كفاية تامة لتقويض دعائم البيت الأموى فى عهد قائد محنك وجندى مدرب كمروان . إنما السبب الحقيقى فى تأسيس الدولة العباسية هو الصبغة التى صبغ بها الحجاج الحكم فى ذلك الزمان وبرغم محاولات عمر الثانى وجهوده فقد ظل هذا المبدأ هو السياسة التقليدية

المتبعة فى البيت الأموى فى عهد الخلفاء المتأخرين — سياسة الجور وعدم اتصال العمال والأمراء بالشعب المؤلف من مختلف الأجناس — فضلا عن أنه لم تكن ثمة أوشاج تربط بين قلوب هؤلاء و بين قلوب الحكام والأمراء .

أسبابها

كان العرب بافتخارهم بقوميتهم يترفعون عن الوطنيين ، و ينظرون إلى غيرهم بالرغم من التعاليم الإسلامية نظرة السيد إلى المسود مما أدى إلى تذمر أهل البلاد الأصليين . ومع أن الوظائف الصغيرة فى الدوائر المالية والإدارية كانت معظمها فى أيدى أبناء الفرس ، إلا أن وظائف الجيش الرئيسية ومناصب الدولة الكبرى كانت موصدة الأبواب دونهم ، وكانت الأمم المغلوبة إذا ما التجأت إلى القرآن الكريم تستشهد بآياته [1] عما جاء فيها من الدعوة إلى المساواة والإخاء ، كان العرب إما أن يقابلوا تلك اللجاجة بشىء من الازدراء ، أو أن يتملصوا من الرد عليها بالمراوغات والمماحكات ، و باستثناء النفر القليل الذى قيد اسمه فى سجلات عمر بن الخطاب ، و باستثناء الذين امتازوا بخدمات جليلة للدولة فقد كان جميع أهل البلاد المغلوبة محرومين من الاشتراك فى الحفلات العامة ، أو الاشتراك فى مباهج الحكام ؛ كذلك كانوا يتركون وشأنهم فى زوايا النسيان تأكل قلوبهم الغيرة والحسرة على مجدهم الضائع وعزهم التالد . ومع ذلك فقد كان عرب الشام من مضريين وحميريين منهمكين فى خصوماتهم القبلية ، فلم يشعروا كثيراً بالزوبعة التى كانت تعصف حولهم . وقد أثار عجز السياسيين فى الحكم والتعصب للقومية شعوراً قويا فى قلوب أهل فارس بأنهم ضحايا الظلم ومنكوبى الاستعمار . ولم يكن ينقص إضرام نار الثورة الوطنية غير « كلمة

---

(١) جاء القرآن الكريم فى هذا المعنى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وفى الحديث الشريف « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » . « والمؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .

(المعرب)

التعارف » وقد وجدت الآن فى عبارة الدعوة « لآل البيت » ، وأصبحت نداء متعارفا تستتر وراءه الشعوب المغلوبة فى المشرق للم شعثها وجمع كلمتها . ولم يكن الحميريون والحجازيون والعراقيون فى خراسان أقل سخطاً وتذمراً من أهالى البلاد الأصليين ، إذ كانت القبيلة التى تستولى على الحكم — كما هى العادة دائما — تحاول الاحتفاظ بنفوذها ، وتحول دون اشتراك الفئات الأخرى فى السلطة ، مما ولد الحسد والنزاع بين القبائل العربية . وفى تلك العناصر الساخطة ألفى أبو مسلم الخراسانى أمنيته المنشودة لكى يتكأ عليها فى إضرام نار الثورة ، وأصبحت خراسان معقل المتشيعين لآل العباس .

كان « نصر بن سيار » عامل خراسان إداريا حازماً وسياسيا قديرا ، ولو قدر له أن يحكم تلك البلاد فى ظرف آخر غير ذلك الظرف لاستطاع بما وهب من مقدرة وكفاءة ، أن يؤثر عليها تأثيراً حقيقيا و يطبعها بطابعه الخاص ، ولكن الثورة صرفته عن إظهار نبوغه ، فراح يبذل قصارى الجهد فى سحق الفتنة اليمنية التى كان على رأسها « الكرمانى » ، بينما كان الخليفة من جهته يحارب الخوارج فى المغرب . ولما رأى أبو مسلم ضعف الحامية العربية وقلة عددها أصدر بيانه المشهور بإعلان الثورة التى طال الأمد على تدبيرها . وكان السبب الذى عزا إليه الدعوة هو استرداد حقوق « آل البيت » من الأمويين المغتصبين ، فكفلت له عبارة « آل البيت » المبهمة المغرية التى ادعى بأنه من أنصارها مؤازرة متشيعى العلويين . وعقد الاجتماع الأول فى ٢٥ رمضان عام ١٢٩ هـ ، واستدعى الناس بإضاءة المشاعل الكبيرة على قمم التلال ، واحتشدت الجماهير الغفيرة متشحة بالسواد ، دلالة على حزنهم على زعمائهم الذين قتلوا غيلة أو جندلوا فى الميدان ، وهرعت هذه الجموع الزاخرة إلى تلبية الدعوة ؛ ولم تلك تنقضى بضعة أسابيع حتى أخذت الرايات السوداء التى أطلق عليها اسم « السحاب » و « الظل » تنتشر من مدينة إلى أخرى يحملها المتشيعون فى سيرهم نحو المغرب ؛ فطردوا

الحاميات الأموية من « هراة » وأماكن أخرى فى المشرق . كما أدى مقتل « الكرمانى » زعيم الثوار المضريين إلى التحاق أولاده « بأبى مسلم » فاستطاعا بتوحيد قوتيهما طرد عامل خراسان « نصر بن سيار » من مدينة « مرو » .

ولما رأى عرب خراسان المنشقون على أنفسهم انتصار بنى هاشم وانتشار سلطانهم تنبهوا فجأة إلى الخطر المحدق بهم وحاولوا تأسيس شبه اتحاد فيما بينهم ، ولكن الأمر كان قد انقضى وسهم القضاء قد نفذ ، فاستحالت تلك الحركة إلى ثورة جامحة انخرط فى عقدها عدد كبير من زعماء عرب الحجاز والعراق ، وأصبح موقف العامل السيئ الحظ حرجاً جد الحرج ، إذ لم يستطع وحده مقاومة قوات أبى مسلم التى كانت تتزايد بمضى الزمن ، فاستنجد بالخليفة ولكنه لم يتلق منه جواباً شافيا ، إذ كان هو نفسه منهمكا فى حروب الخوارج فى الجزيرة . وقبل أن يغادر نصر بلدة « مرو » رفع نداءه المؤثر إلى مروان يطلب فيه المساعدة مبيناً أن الثورة لا زالت فى مرحلتها الأولى ، وأنه من الميسور حصرها و إطفاؤها ، ثم فرج عن كربه بتلك الصيحة اليائسة التى ظلت تدوى فى أجواء العصور وهى[1] :

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حرباً ... مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام

وتلبية لهذا النداء الحار أمر « مروان » عامله فى العراق أن يسارع إلى مساعدة « نصر » ؛ ولكن « فرغانة » و « خراسان » كانتا قد أسلمتا

---

(١) آثرنا أن نورد الأبيات بعينها ، وإن جاءت نثراً مقتضباً فى الإنكليزية .
(المعرب)

« لأبى مسلم » فازدادت بهما مصادره المادية والمعنوية . وليس أدل على عبقرية هـذا الرجل و بعد نظره من توفقه فى اختيار الأنصار الذين كانوا من أقدر أهل العصر ، ومنهم « قحطبة بن شبيب » من أهل الحجاز ، الذى تعقب « نصراً » إلى جورجان واضطره أن يلتجئ إلى « بلاد الجبل » حيث توفى فى طريقه ببلدة « ساوا » وعمره ٨٥ سنة .

وفيما كانت تلك الحوادث تجرى فى المشرق كان مروان يحاول معرفة اسم « الهاشمى » الذى قامت الثورة من أجله . أما أحفاد العباس فكانوا وقتئذ يعيشون فى قرية تعرف « بالحميمة » بجنوبى فلسطين . وما أن علم الخليفة أن أصل ذلك البلاء هو « إبراهيم » الملقب « بالإمام » حتى أمر بإلقاء القبض عليه وزجه فى سجن حوران مع رهط من الهاشميين و بعض أعدائه الأمويين ، ومن جملتهم « عبد الله بن عمر الثانى » و « العباس بن الوليد الأول » اللذين اشتبه فى إخلاصهما . غير أن حبس « إبراهيم » لم يحل قط دون تقدم جيش « أبى مسلم » إذ لم ينقض طويل وقت حتى اشتبك الفريقان فى معركة رائعة فى « جورجان » وكان يقود الجيش الأموى « نصر بن سيار » ، بينما كان يقود الثوار « قحطبة ابن شبيب » فأسفرت المعركة عن هزيمة « نصر » هزيمة منكرة ، وتقدم قحطبة بجيشه إلى الغرب و بصحبته « خالد بن برمك » الذى أصبح لأولاده فيما بعد شأن عظيم فى تاريخ العرب وآدابهم ، وكانت البلاد وقتئذ تعصف بها ريح الفتن والفوضى ، فلما غشى « قحطبة » مدينة «الرى» وطد الأمن فى ربوعها ، ثم أنفذ ابنه « الحسن » و « أباعون » الفارسى على رأس جيش كبير اكتسحا به الجيش الأموى ومتهوسى الخوارج ، وظلا يواصلان زحفهما حتى اقتربا من مدينة «نهاوند» وهناك حاصرا حاميتها . وفيما كان «عبد الله بن مروان» و «يزيد»[1] عامل العراق يزحفان على تلك المدينة على رأس جيشيهما كان « قحطبة » يشدد

(١) هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى . (المعرب)

الحصار على تلك المدينة حتى فتحها عنوة ، وعندئذ سارع إلى إرسال « أبى عون » لمهاجمة « عبد الله بن مروان » كما تصدى هو « ليزيد » الذى كان معسكراً فى جالولاء ، ثم سار إلى الكوفة عاصمة العراق . ويقول الرواة أن « يزيد » عند ما بلغه خبر زحف عدوه حاول أن يصده ، ولكنه كان قد انتهى إلى الفرات ، وعندئذ اكتفى يزيد بالعبور وعسكر على بضعة أميال من جيش « قحطبة » ، وهنالك تقابل الفريقان فى البقعة التى قتل فيها « الحسين » ، ودارت بينهما معركة هائلة أسفرت عن هزيمة الجيش الأموى ، كما خسر العباسيون قائدهم الذى ولى ابنه أمر القيادة فى الحال وهجم على الأمويين يثخن فيهم القتل حتى أجبر يزيد أن يتقهقر إلى واسط [١-٢] كذلك لم تلبث الكوفة أن أذعنت بالتسليم دون مقاومة تذكر . ويقال إن مروان حينما بلغه خبر هذه الكارثة خرج عن وعيه ، وراح يرتكب أروع ضروب السفك ، كما أنه لم يكد يعلم بخبر المكاتبة التى كانت تجرى سرًّا بين « إبراهيم » وبين « أبى مسلم الخراسانى » حتى أمر بوضع رأس إبراهيم فى جراب ملآن بالنورة حتى زهقت روحه ، وبقتل المسجونين [٣] الآخرين . ويؤثر عن « إبراهيم » أنه قبل أن يلاقى حتفه على هذا النحو أوصى لأخيه « أبى العباس عبد الله » الذى أقسم لينتقمن لأخيه شر انتقام ، وقد بر بوعده وارتكب فى تنفيذ ذلك أروع أنواع السفك حتى لقب « بالسفاح » [٤] ، وهو الاسم الذى عرف به فيما بعد . ولما قتل إبراهيم فر أهله

---

(١) مدينة بناها « الحجاج بن يوسف » وسميت كذلك لتوسطها الطريق بين الكوفة والبصرة .

(٢) وعلى مسيرة يوم منها قرية اسمها أم عبيدة فيها قبر ولى الله أحمد الرفاعى قطب الطريقة الرفاعية — وولد فيها أبو الفرج الجوزى إمام عصره فى الحديث . (المعرب)

(٣) يقول ابن الأثير : « إن إبراهيم توفى إما تحت أنقاض البيت الذى انهار عليه ، أو دس له السم فى الحليب ، كما أن الباقين توفوا بالطاعون . ولعل الرواية الأخيرة صحيحة » .

(٤) من المرجح أنه سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطبة له : « فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح » . (المعرب)

إلى الكوفة حيث ظلوا مختبئين فى إحدى دورها حتى فتحها « حسن بن قحطبة » ولم يكن قد أذيع بعد الغرض الأساسى من الحركة التى حملت أهل فارس على التخلص من نير الأمويين ، إذ أن عبارة « آل البيت » كانت وحدها قمينة بجذب الناس على اختلاف طبقاتهم حول العلم الأسود المشهور ، واسترعاء عطف الشيعة وتقديرهم .

وتقول الرواية العربية إنه لما غشى « حسن بن قحطبة » الكوفة كان يصحبه « أبو سلمى الخلال »[1] الذى يقول فيه صاحب روضة الصفا : « كان يلقب بوزير أحفاد النبى » . ويظهر أنه كان يدعى لنفسه الولاية على الشيعة من غير علم زعيمهم بذلك ؛ فاستقبله القائد العباسى بضروب الحفاوة والتقدير ولثم يديه ، ثم أخبره أن « أبا مسلم الخراسانى » أمره باطاعة أوامره ، وعندئذ خرج الاثنان معاً إلى المسجد ، ونودى الصلاة جامعة ، فظهرت الكوفة متشحة بحلة غريبة كما تجمع أهلها فى المسجد مرتدين الملابس السوداء — شعار بنى العباس — لسماع الخطبة التى طال أمد انتظارهم لسماعها ، وفى الميعاد المضروب ظهر أبو سلمى مرتدياً هو أيضاً الملابس السوداء ، ولم يكن أحد غير النقباء يعلم بأن الرجل قد اعتنق الفكرة العباسية وضحى بمصالح أسياده ، وبعد الصلاة اعتلى « أبو سلمى » منصة الخطابة وطفق يشرح للناس سبب الاجتماع منوهاً بفضل أبى مسلم الخراسانى حامى حمى الدين ، ومؤيد حقوق آل البيت ، ومسبب سقوط الدولة الأموية من شاهق عزها ، ثم ختم كلامه بقوله : « إنه لا يرى من هو أحق وأنبل من « أبى العباس » لهذا المنصب الخطير » .

ومما يجدر ذكره أن العباسيين كانوا فى تلك اللحظه الرهيبة يشكون فى مصير الاجتماع ، وما عسى أن يفضى إليه ، إذ كانوا فى الواقع يخشون ألا يوافقهم أهل الكوفة على خيانة آل البيت . ولكن الكوفيين أيدوا القول المأثور

(١) اسمه حفص بن سليمان .

عنهم بتقلب الأهواء . فلكم ثاروا فى سبيل إعزاز قضية آل البيت ، ولكم خدعوا أصحاب تلك القضية بعد أن تعهدوا لهم بمساعدتهم ؛ وها هم الآن يتأثرون بنزوة الساعة و يبرهنون من جديد على أنهم فى خيانة أية عقيدة لا يقلون حماسة عن الذود عنها والاستماتة فى سبيلها .

مبايعة السفاح

ولم يكد « أبو سلمى » ينتهى من تزكية « أبى العباس » حتى صاح جميع من فى المسجد بصوت واحد « الله أكبر » دلالة على التأييد . وفى الحال أرسلوا فى طلب أبى العباس الذى ما إن وصل إلى الجامع حتى هبت الجماهير تسلم عليه بالخلافة ؛ وعندئذ اعتلى المنبر وألقى الخطبة التقليدية ، وهكذا نال « بنو العباس » السلطة ، واستولوا على الحكم على حساب « أولاد فاطمة » الذين عوملوا على أيديهم فيما بعد معاملة من معدن آخر .

وفى تلك الأثناء أخذت الحوادث تقع سراعا فى الشمال حيث التحم « أبو عون » بجيش ابن مروان فى « شهرزور » شرقى الزاب ، وأنزل به خسارة فادحة . أما « مروان » فكان قد عبر دجلة فى ١٢٠ ألف مقاتل ، وتوجه صوب الزاب الكبير حيث التقى بجيش « عبد الله بن على » أحد أعمام السفاح فى قرية تعرف « بالكشاف » ، ويقال إنه كان قد عقد جسراً على النهر ، وتقدم بشجاعته المعهودة إلى القتال .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن جنود « السفاح » كانوا متشحين بالسواد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين ، كما كانت خيولهم وجمالهم متشحة بالسواد ؛ و بهذا اللباس الغريب طفقوا يسيرون فى صمت موحش كأنهم يمشون فى موكب إحدى الجنائز ولا مشاحة أن هذا المنظر الشاذ أرهب جنود الشام ، ووقعت فى تلك اللحظة حادثة مشئومة زادت فى هلعهم ، إذ بينما كانوا متراصين يترقبون أوامر ضباطهم اتفق أن طار عليهم سرب من الغرابيب كالسحب السود ، ثم حط على رايات الجيش العباسى ، ولم يفكر « مروان » قط فى هذه الحادثة ، ولكنه نظر إلى

أصحابه المحاربين ، فألفاهم قد استشعروا الجزع ؛ ومع ذلك فقد انتصر فى أول معركة اشتبك فيها بنفسه مع جيش « عبد الله » ، واستطاع أن يزيح العباسيين عن مواقعهم ، ولكن « أبا عون » أمر جنوده بالترجل ، وأخذ « عبد الله » يحرضهم على الأخذ بثأر ابن أخيه « إبراهيم » ، ثم ناداهم بقوله : يا أبطال فارس المفاوير ! يا محمد ! يا منصور ! وفى الحال رددوا نداءه بصوت عال ، وحملوا على خصومهم حملة صادقة . أما مروان فكان يهيب برجاله أن يحافظوا على سمعة بيته ، ولكن نداءه ذهب نفخة فى رماد ، إذ لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام ضربات العدو القاسية . وفى نهاية المعركة شوهد حصان مروان يركض فى الميدان من غير صاحبه .

موقعة الزاب وهزيمة مروان

ختمت هذه الموقعة التاريخية التى دارت فى إحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية مصير الدولة الأموية ، وفر مروان إلى الموصل فمنعه أهلها من الدخول إليها ، فتوجه صوب حوران حيث مكث مدة يسيرة محاولا جمع جيش آخر ، بيد أن العباسيين الغلاظ الأكباد كانوا يتعقبونه أينما سار ، ففر منهم إلى حمص ثم دمشق . ولما رأى أن الخطر يداهمه وشيكا أسرع إلى فلسطين ، ولكنهم كانوا يلاحقونه من غير ما شفقة ورحمة ؛ وبالأخص « عبد الله بن على » الذى سار فى طلبه . وكانت الموصل وحوران ، وحمص قد قدمت طاعتها إلى السفاح بغير قتال ، وأبدى الأمويون فى دمشق شيئاً من المقاومة ، ولكن جيش العباسيين اقتحم المدينة وفتك بحماتها « صهر مروان » ، وبذلك سقطت حاضرة الشام وعاصمة الإمبراطورية فى أيدى العباسيين . وفى ٥ رمضان عام ١٣٢ هـ أى بعد خمسة أشهر من رفع العلم الأسود على دار الحكومة فى الكوفة وثلاثة أشهر من موقعة الزاب أخذ العلم العباسى يخفق على القصر الأموى .

ولم يقتصر « عبد الله بن على » على إنزال أروع ضروب السفك بالأحياء ،

مما لم يسبق له مثيل قط فى التاريخ ، بل أمر أيضاً بنبش القبور وحرق العظام وذر رمادها فى الهواء[١] ، ثم أخذ يتعقب « مروان » الذى كان قد عقد النية على الرحيل إلى إحدى مدن الروم ليستنجد بملكها قسطنطين ، وكان قد قرأ قصة ملك الفرس الذى استنجد بالإمبراطور البيزنطى ليرد إليه ملكه ، ولم يكن ليشك قط فى الحصول على مثل تلك المساعدة ، غير أن بعض مشيريه[٢] الذين لم يتخلوا عنه فى وقت محنته أقنعوه بالإقلاع عن تلك الفكرة ، وأشاروا عليه بالارتحال إلى مصر أو أفريقيا ، حيث يستطيع حشد جيش آخر يحتل به الإمبراطورية الشرقية ، أو تؤسس حكومة جديدة قوية الدعائم فى المغرب ، فأسرع إلى الفيوم إحدى مديريات مصر العليا ، ولكن عبد الله بن على كان قد أرسل أخاه صالحا مع أبى عون لتعقبه ، فأدركه أبو عون عند الفسطاط فى كنيسة صغيرة فى بوصير على الساحل الغربى من النيل حيث كان مضطجعاً يستريح من وعثاء السفر .

قتل مروان فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ

ولما بصر مروان بأعدائه صمم على أن يكافح حتى آخر نسمة من حياته مؤثراً الموت على الاستسلام ، وهجم عليهم شاهراً سيفه فأصابه أحدهم برمح خر على أثره صريعا . وهكذا قتل فرد من أشجع وأفضل أفراد هذا البيت ، وبموته انهارت الدولة الأموية . وأمر السفاح الذى لقب « بالمنتقم للبيت الهاشمى » بتعقب الأمويين وتقتيلهم بكل قسوة إشباعاً لحقده الوحشى المجرد عن كل عاطفة إنسانية ؛ فكانت تضرب رقاب الذكور أينما وجدوا ، وبثت العيون والأرصاد للبحث عنهم تحت الخرائب وفى بطون المغائر وعلى رؤوس التلال . ولا نعرف لهذه المذابح مثيلا غير حرب الورود التى استؤصلت فيها شأفة أسر برمتها .

---

(١) يقول ابن خلكان : « إن الأعمال الوحشية التى عامل بها الأمويون زيداً وابنه دفعت بعبد الله بن على إلى الأخذ بالثأر » .

(٢) اسمه إسمعيل بن عبد الله القشيرى . (المعرب)

وعلى ضفاف نهر « أبى فطرس » بفلسطين استقدم « عبد الله بن على » نحواً من ثمانين رجلا من أقارب مروان إلى خيمته بعد أن كفل حمايتهم ، ولكنه لم يلبث أن فتك بهم من غير ما رحمة ولا شفقة ، على أن كثيراً من بنى أمية استطاعوا الفرار من تلك المذابح الدامية ، ولم يظهروا إلا فى زمن خلفائه الذين نالوا فى عهدهم شيئاً من الرعاية والعطف ؛ ومن بين هؤلاء الذين نجوا من تلك المذابح « عبد الرحمن » حفيد هشام الذى ارتحل إلى الأندلس وأسس هنالك دولة باسمه . أما بنات مروان اللواتى كن معه وقت مقتله فقد أرسلن إلى « حران » مع أفراد الأسرة الآخرين ، وهنالك عاشوا فى بؤس شديد وفقر مدقع حتى اعتلى « المهدى » عرش الخلافة فأسبغ عليهم العطايا وخصص لهم الأرزاق التى رفعتهم من وهدة الفقر إلى المراكز الجديرة بهم .

وبموت مروان انتهى حكم البيت الأموى فى المشرق ، وبعد بعض خلفائهم ولا ريب من العظماء كما كان البعض الآخر لا يقل عن معاصريهم فى العرب قسوة وشرا ، ويمكننا أن نسمى عمر الثانى « ماركس أورليوس » العرب إذ جاء قبل أوانه ؛ ويعد الوليد الأول وهشام من أهل الكفاءة والأمانة التواقين إلى النهوض بشعبهم إلى مدارج الرفاهية والنجاح . ولقد كان مروان نفسه — لولا نهايته المفجعة — يستطيع أن يتخذ محله فى الصف الأول بين ملوك العالم نظراً لما كان يتحلى به من الشجاعة والحكمة ، ولكنهما صفتان كما يقول ابن الأثير لم يجدياه نفعاً . وقد استعرض أحد أفراد بنى أمية ممن كان يشغل منصباً كبيراً فى تلك الدولة أيامهم الأولى بعد أن فلت الحكم من أيديهم وأتى على أسباب سقوط الحكم الأموى فقال : « إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت

ظاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداءنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»[1].

وقد بلغت مدة حكم بنى أميـة من استشهاد الإمام « على » إلى أن قتل مروان الثانى حوالى ٩١ سنة ، وبالرغم من ضروب الاضطهاد والتنكيل الوحشى والأنانية التى استعملت فى الكفاح بين العباسيين والأمويين ، فقد خلق هذا التحول عوامل أعانت على بعث روح جديدة فى التطور العقلى فى العالم الإسلامى وقدمت إلى العالم أجمع رجالا يعدون فى مصاف الخالدين .

---

(١) المسعودى .